الفردوس المفقود

نعيمكِ لو تعلمين امَّحى ... كما يمحى الطلل الدارس
سَفته الرياح لدى عصفها ... وداس معالمه الدائسُ
أطوف بأرجاء هذا الخراب ... أقبِّل أنقاضه الخالدهْ
وأسجد فوق مهيل التراب ... لأندب جنتيَ البائدهْ

ترسَّمت أمس بقايا خطاكِ ... على ضفة النَّهر ، من تذكرين ؟
هناك التقيناَ وكان الربيعُ ... وكنت كأزهاره تبسمين
هناك رأيتك عارية . . . ... وقد غار من طهرَك الياسمين
فمجدت فى عريك العبقرى ... جمالَ اسماء ، جمالَ الفنون
هناك عرفتُك حالمةً ... و يا لجمالك إذ تحلمين ! . . .
تذوب السَّموات فى مقلتيكِ ... سَناً غافياً بين ظل الجفون
وتَعْشَى الفراشات حول البهاء ... يَرفُّ على طهر ذاك الجبين
هناك رأيتُك راقصةً . . . ... و يا روعة الفنّ إذ ترقصين
تميسُ الغصون ويمشى الحَمَامُ ... يقلِّد خطوكِ إذ تخطرين
يُجَنُّ حنون طيور المروجِ ... فتعزف نشوى ، بديعَ اللحون

ترسمت أمس بقايا خطاكِ ... ولكن عَفتْ تحت خطو السِّنين
فماذا رأيت ؟ بقايا هشيمٍ ... بقايا جدوع ، وصلصال طينِ
وماذا سمعتُ ؟ . . . صفير الريا ... حِ تعوى وراء الرُّبى والحزون
وفتشلت عن حالماتِ الضفافِ ... رواها من النهر ماء مَعِين
فلا النهر ينساب حلماً وديعاً ... ويحكى فتونك إذ تنظرين
يقبِّل فى خلسةٍ قديكِ ... وفتنة عريك إذ تسبحين
ولا العشب خضراء تكسو الضفاف ... ولا الظِّل ينشرُهُ الزيزفون . . .
ولا النور يرقص فوق اللُّجينِ ... لجين الحياض ، لجين العيون . . .

وناديتُ باسمك ذات الشمال ... وناديتُ باسمك ذات اليمين
فرجّع صوتي هذا العراء ... وعاد إليَّ صداه الحزين
فأيقنتُ أنك لا تسمعين ... وأيقنت أنك لا تذكرين
وأيقنت أنكِ يا جنّتي ... مضيت إلى حيث لا ترجعين
وأغمضت عيني في غفوةٍ ... كما كنتِ يا جنّتي تفعلين
فأبصرتُ طيفكِ في عالمٍ ... بعيد . . . بعيد . . . تحدّى الظنون
وراء الشعور ، وراء الخيال ، ... وراء الحياة ، وراء المنون
وساءلتُه عنك هل تذكرين ... ربيع السّعادة جمّ الفتون
إذِ الخلد قيثارة في يديك ... وأنت بأوتارها تلعبين
إذِ الكون مملكة للجمالِ . . . ... وأنت على عرشها تحكمين
وعرس الطبيعة ما ينقضي ... وعيد الوجود إلى غير حين

ولكنّ طيفك في صمتهِ . . . ... تلاشى وطار إلى عليين
فأيقنتُ أنك لا تسمعين ... وأيقنت أنك لا تذكرين
وأجهشتُ مختنقاً بالنحيب ... وبالصّمتِ من بعد طول الأنين

نعيمك لو تعلمين ، امّحى ... كما يمّحي الظّلُّ الدّارسُ
سفته الرياح لدى عصفِها ... وداس مَعَالمَهُ الدائسُ
أطوف بأرجاء هذا الخراب ... أقبّل أنقاضه الخالدَهْ . . .
وأسجد فوق مهيل التراب ... لأندب جنتيَ البائده . . .

هناك في الغاب في سِدْ ... رَحِ الهوى والتصابي
هناك حيث قضينا — معاً — ربيع الشباب
وقفتُ حيرانَ أشكو ... إلى الجنادل ما بي
سألتُ عنك صخور الـ ... وَادي وشم الهضاب
سألت عنك بقايا الـ ... جذوع والأعشاب
فكان عصفُ الرياح الـ ... هَوْجاء كلّ جوابي
عَفَت رُسُوم هوانا ... والذكرياتِ العذابِ

لم يبق من كوثر الحب غير لمْع السَّراب
لم يبق من سَامقِ الدَّو حٍ غير قفر يباب
لم يبق من وارف الظل غير ظل السحاب
لم يبق من باغم الطير غير طير الخراب
وقفتُ حيران أشكو إلى الجنادل ما بى
وقلت : يا نفس شَتَّا نَ بين غابٍ وغاب

ترسَّمتُ أمسِ بقايا خطاكِ إلى الغاب ، تَمْسرح حلمَى الجميل
هناك التقينا — ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ ، وكان الأصيل
وكنَّا وحيدين بين الظلال نميل مع الحب حيث يُميل
طليقين لولا رباطُ الهوى وسدُّ العفاف تحدى السيول
هناك على العشب ، بين الزنا بق ، تحت الخمائل خلفَ الحقول
غَفَوْنا على نغمات الهزار وهبِّ النَّسيمِ ، النَّسيمِ العليل
وساد الظلام ، وساد الهدوء ولفَّك جُنح الدُّجى والذهول
قبَّلت فى لهفة شفتيكِ لأرشف ترياقك السَّلسَبيل
فما أطفأت شَفتاك الغليل بل اشتدَّ من شفتيك الغليل
وهأنذا أتقفَّى خطاكِ ولكن أضل سَوَاءَ السَّبيل

ترسَّمتُ أمس ، بقايا خطاكِ إلى الغاب تَمْسرح حبِّى العجيبْ
هناكَ التقينا ، ألا تذكرين ؟ وكان الربيعُ وكان المغيب
وكنا وحيدين بين الظلالِ وقد نام فى وكْره العندليب

حدانى القلب ، أوَّاهُ ! إلى تَمْسرح أحلامى
إلى الغاب الذى قضَّيـ تُ فيه ربيع أيامى

هناك عرفت معنى الحب معنى وحيه السَّامى
هنالك كنتِ يا فردو س ينبوعاً لالْهَامى

هنـاك ضفرتِ إكليـلا من النسـرين والوردِ
وتوَّجتِ جنـون الشـهـ ـوة الحمراء من وجدى

هنـاك شربتُ من أنفا سكِ الحرَّى ومن ثغرك
رحيقَ الحب من شفتيكِ واللوعةَ من صـدرك

وقبَّلتُ على نهـديكِ رمز الشهوة الحمرا
وينبوع الحيـاة الحق والمعجـزة الكبرى

هنـاك سجدت مَشْدوهاً لروعة جسمك العـارى
وغنَّيتُ فنـون الحبِّ صـدَّاحاً بمـزمارى

هنـالك عرْبَدَ القلب هنـاك تألَّـه الحبُّ
هناك تعـانقَ المشهودُ فى جسـمك ، والغيبُ
هناك نسيتُ ما الرضوانُ ما النَّعنـات تنصـبُّ
وما الفردوس ، ما نعماه ، ما كوثره العـذبُ

وقلت كفانى جنَّةً جسْمك العارى
إذا كنتِ ناراً فلا كُنْ حطبَ النار
وإن لم تكونى آيةَ المبدع البارى
فما تحت هذى الشَّمس آىٌ لمختار !

نعيمك ، لو تعـلمين ، امَّحى كما يمَّحى الظِّلل الدَّارسُ
سفته الرياح لدى عصفها وداسَ معالمَـهُ الدَّائسُ
أطوفُ بأرجاء هذا الخرابِ أقبِّـل أنقـاضه الخالدَهْ
وأسجد فوق مهيل التراب لأندب جنَّتىَ البـائدهْ

[باريز]

ادريس الحائى